

الخطابة والجمعة

أوجب الله الجمعة فرضاً كسائر الفروض العينية ، قال تعالى : « وإذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

وإن في هذا التشديد والتعظيم ، لحكمة وراءها الخير النافع للمسلمين . فصلاة الجمعة إنما هي بمثابة اجتماع يجمع شمل المسلمين ، ويوحد صفوفهم ، ويؤلف من كلمتهم ، فما أشد حاجتنا إلى شخصية يكون لها في الخطابة أوقع الأثر في نفوس المسلمين ، وما أوجنا إلى خطابة تعالج مشكلاتنا وأحوالنا فتهدينا إلى الخير تارة وتدودنا عن الشر أخرى ... لقد كان المسجد في صدر الإسلام وما بعده من العصور القريبة له يقوم بشتى النواحي الاجتماعية والخلقية ، فالخلفاء ، ونوابهم كانوا يخطبون في المشكلات الحاضرة ، كلما حز بهم أمر أو حلت بهم نازلة ، هذا هو شأن المسجد إبان صدر الإسلام . ولكن الأمور تغيرت والأحوال تبدلت فأصبح المسجد لا يحظى بالاجتماع إلا يوم الجمعة في كل أسبوع . وباليات الأمر وقف عند هذا . بل إننا نجد الكثير من الناس وغالبهم من الشباب المثقف انصرفوا عن المسجد حتى في يوم الجمعة . وقد يكون لهؤلاء بعض العذر في ذلك . لأن خطبة الجمعة التي يترقبها المصلون بعيدة عن مشكلاتهم وأحوالهم وما يحيط بهم من ظروف فأئمة مساجدنا وخطبائها لا يزالون ، غفر الله لهم ، ينهجون القديم ، لأنه قديم ، ولو كان خالي المنفعة . كل ما في خطبهم (اتقوا الله) إجمالاً

في غير تفصيل . فلا تحرك نفساً ولا تحيي همة ، يتبعها سجع مبتذل ركيك ، دون في العصر المملوكي وما بعده من العصور التي انحطت فيها اللغة العربية ، وضعفت . وبما سبب عدوى هذا المرض أن أولئك دونوا لنا هذه الخطب . وهي والحق يقال لا تصلح أن تكون خطباً لازماً لهم . فضلاً عن كونها تفي بالغرض في عصرنا الحاضر . أساليبها تميمت الهمم وتفتت العزائم . وتبعث في النفس السأم والملل . لذلك يضيق المصلون ذرعاً بالخطيب لأنه أطل في الخطبة وأسهب . والحقبة أنها أقل من أن تكون خطبة للجمعة . ولكن نقل الألفاظ وكثرة تكرارها في كل أسبوع . وعدم التجديد في الموضوعات بحيث تلائم ما تقتضيه الظروف . كل هذا جعلها أثقل من جبل أحد على قلب كل مصل . وقد يتطور هذا الضجر بالمستمع فيكون من العوامل التي تسبب تكاسله في أداء فريضة الجمعة التي يقول فيها النبي ﷺ : (من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه) .

إن لكل زمن أسلوبه وطريقته ، ولكل زمن مشكلاته وظروفه وأحواله الاجتماعية . فلا يجب أن نقيده أنفسنا ونلزمها بما لم يفرضه الله علينا .

والوعظ والارشاد ليس له زمن خاص أو وقت خاص . وإنما هو يتمشى مع الظروف وأحوالها ، والجماعات . ومشكلاتها . إن الخطب القديمة لم تنص على ما يحدث بيننا من كوارث وما نشعر به من مصائب . وما تكيدته . لنا الأمم بين عشية وضحاها . فكل هذا لم يتعرض له دواوين القدماء وخطبهم المنبرية . لقد غدت الخطبة عند بعض الخطباء شيئاً رسمياً يؤدي على المنبر بأي صورة ، وكفى بذلك ، فضاعت الحكمة والغرض المقصود . من الاجتماع يوم الجمعة فدب الضعف الخلقى بالنفوس .